التفرّد القرائي للتغيرات النحوية والألفاظ الفرشية في قراءة الحرمِيَّيْن . ابن كثير ونافع .

The reading uniqueness of grammatical changes and brush words in the reading of the two holy mosques - Ibn Katheer and Nafeh -

بن فطة عبد القادر*

جامعة مصطفى اسطمبولي . معسكر

abdelkader.benfetta@univ-mascara.dz

تاريخ الارسال:2024/07/08	تاريخ التقييم:2024/11/25	تاريخ القبول:2024/12/15

الملخص

لا يعدم الدارس المستقري لتاريخ علم القراءات أن يقف على فوائد نفيسة تشير إلى ما نال هذا العلم في الحرم من أهمية تجاوزت الآفاق ففرضت نفسها في الحواضر الإسلامية. فقراؤها حصلوا من العلوم ما قد سما بهم إلى الذروة القصوى في مقدمتهم ابن كثير ونافع اللّذان يمتلكان من أسرار علم القراءات ما استطاعا أن يتفرّدا به بين معاصريهما من القراء، وأدركا قدرا من النحو فانصرفا في تدوينه في فرشهما.

تفطّن القارئان إلى مشكلة الشذوذ على أنّه ضربة لازب ما كان للعربية أن تنجو من غائلته، فأباحا لنفسهما أن يستعيرا من القرآن ثروة نحوية أوعبا بها فرشهما، فأبعدته عن الإغراب والتعقيد ليتّصف ببعد الدلالة وحسن التفكير في تنظيم العلاقة بين التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية لتبقى قراءتهما راسخة في الألباب. والذي لا ريب فيه أنّ تركتهما القرائية باتت مترامية الأبعاد، متجدّدة بخصوبة اللغة، وراء تلك التركة عقلية ثاقبة استطاعت أن تتغلغل حتى أعماق بقايا الفصاح، وعايشت أسرار الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم.

كلمات مفتاحية: ألفاظ الفرشية؛ تغيرات نحوية؛ لغة القرآن؛ علم القراءات؛ مدرسة الحرم.

Abstract: The stable student of the history of the science of readings does not fail to find valuable benefits it indicates the importance that this science attained in the

sanctuary, which exceeded all horizons and imposed itself in the Islamic cities. Its poor people obtained from the sciences that have elevated them to the highest peak, led by Nafeh and Ibn Katheer The two possess the secrets of the science of recitations that they were able to be unique among their contemporaries of reciters. The two readers understood the problem of abnormality as a blow that the Arabic language should not have escaped from its ravages. They allowed themselves to borrow grammatical wealth from the Qur'an, with which they filled their beds. Therefore, I kept it away from strangeness and complexity, to be characterized by the dimension of significance and good thinking in organizing the relationship between grammatical changes and verbal expressions. Here is no doubt that their legacy of reading has become far-reaching, renewed by the fertility of the language.
Key Words: hrasal verbs grammatical changes; Quran language; the science of readings; Campus School.

1.مقدمة :

كان ابن كثير نافع من أفصح أهل زمانهما، وأكثرهم علما، نالا الحظوة عن أهل الإقراء، أصبحا من أكبر القراء يعدون إليهما لما تيسّر لهما من جودة القراءة، يجزلان في التغيرات النحوية، ويسهلان في الألفاظ الفرشية، وينبذان الغريب. كان لرقيّ علم القراءات في عصرهما، واتّساع أفقه الأثر في تشكيل ذخيرة قرائية تتناسب ولغة القرآن وسنّة الفصحاء.

كانا ذوَيْ فطنة ومهارة في تصريف الألفاظ الفرشية إلى أبعد غايتها إلى جانب حكمتهما وقدرتهما البارعة في انتقاء التغيرات النحوية، فجهدهما في تثبيت مذهبهما القرائي وبسط نفوذهما، بين جانبيهما قلب يخفق بحب هذا العلم الشريف ويرغب في خدمته. فرشهما يشير إلى عنايتهما بعلاقة التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية وتهذيبها لتفهم بالحدس والحرز لمن توفّرت له دقّة الذكاء وجودة الفطنة.

اتّبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف عند لطائف التغيرات النحوية في إطار تفاعلها مع الألفاظ الفرشية، وبقدر ما كانت سلطة القرآن تحكم قبضتها على هذا

التفاعل كانت قراءتهما تمدّ سلطانها وتنشر إشراقتها، فقدّمت لنا مادة لغوية حيّة وقفت عند تغيرات عبّرت عن الحس القرائي الذي كان يعتمل في ملكة القارئين، فهيّأ لهما أنفس التغيرات النحوية ليظهرا من التفرّد ما يحمد عليهما، وجعلهما في مصاف القراء الكبار.

السؤال المطروح: فأيّ موقف من هذه المسألة كان الحرميان دقيقين في التغيرات النحوية، وأمينين حرصا على سلامة اللغة، وبقاء أواصر النحو مشدودة إليها، وحجب دواعي الشذوذ والتراخي؟

2. مفهوم الفرش:

1.2. لغة:

فَرَش الشيء يَفْرِشُه فرْشا، وفَرَشَه فانفرش وافْتَرَشَه: بسطه قال تعالى: (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا) البقرة[1]20 وفي الصحاح (الفَرْش: الزرع إذا فرّش، والفرش: الفضاء الواسع. والفرش صغار الإبل. ومنه قوله تعالى: (ومن الأنعام حمولة وفرش). وافترش الشيء انبسط، وافترش ذرعيه: بسطهما على الأرض)[2]

2.2. اصطلاحا:

قال أبو شامة (665 ه): (القراء يسمونه ما قل دوره من الحروف، فرشا، لانتشارهن فكأنّه انفرش إذ كانت الأصول ينسحب حكم الوحد منها على الجميع. وسماه بعضهم: الفروع على مقابلة الأصول، ويأتي في الفرش مواضع مطردة حيث وقعت وهي بالأصول أشبه منها بالفرش.)[3] وعرّفه الضباع: (ما يذكر في السور من كيفية قراءة كلّ كلمة قرآنية مختلف فيها بين القراء مع عزو كلّ قراءة إلى صاحبها ويسمى فرش الحروف وسماه بعضهم بالفروع مقابلة للأصول.)[4]

وفي قوله تعالى: (وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنْ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا) النور9 (واختصّ نافع بكسر الضاد وفتح الباء من(غضب) ورفع الجلالة بعده)[5] خفّف نافع(أن) وقرأ (غضب) بصيغة فعل الماضي،

ورفع اسم الجلالة على أنّه فاعل، والتقدير أنه (غضب الله عليه) وقراءة (أَنَّ غَضَبَ الله عليها) (أنَّ) مصدرية ناصبة و(غَضَبَ)مصدر اسمها وخفض لفظ الجلالة على الإضافة.

قدّم التعريفان نظرة غورية تقيّد التعريفات باستغوار ما وراء الألفاظ لإزالة الصدف عن مصطلح الفرش، ويدرك القارئ مرمى التعريف وهو يخلو من ضعف التركيب اللفظي في تنافره وفي ثقل المعنى، فلا نجد تباينا في صياغة طبيعة الألفاظ التي ضمّها التعريفان، ولا ريب أنّ اهتمام بهذا المصطلح دفع طموحهم بالتأدّب مع علم القراءات، وحفظ روائعه، والعكوف عليه بدرسه بدأب وصبر شديدين على أن تظهر الجودة بلغته.

3. مكانة القارئين القرائية:

لنا في قرائنا الأوائل ممن وفقّوا إلى فهم القرآن فهما صحيحا وأحسنوا قراءته قراءة صائبة، فضلا عن إنجازات معاصريهم من دارسي اللغة، ما يعصمنا من الوقوع في شرّ القراءة الشاذّة، والترديد لمقولات أصحابها التي أثقلت كاهل الحركة القرائية بتعليلاتهم التي تجافي منطق القراءة المتواترة وأسرار اللغة. ولا يمكن أن ننسى جذور القراءة المتواترة بالحرم التي وجدت في نافع وابن كثير سببا مباشرا لتعبئة عددا كبيرا من أهل الإقراء تعبئة مغايرة لخطط اللحن والشذوذ.

أجاد القارئان في تنشيط أسباب الإحساس بأهمية مذهبهما، وبقدر ما تكون الاستثارة متوافقة من حيث اختيار التغيرات النحوية تكون الاستجابة أقوى، فالشيخان قدّما عبر مذهبهما القرائي ثمرات ناضجة في بناء أسس علم القراءات عراقة وأصولا هذا ما نلمسه من خلال مكانتهما في حركة الإقراء.

1.3. عبد الله بن كثير المكي (120 هـ)

هو قارئ مكة ومن الصفوة الماهرة في ميدان القراءات القرآنية، له ولاء علمي أصيل، ومعرفة واسعة بمذهب متكامل في قراءة القرآن الكريم، انكبّ على تحصيل لغوي، وتنميته حتى صار على يديه صرحا شامخا. حرص على الفرش بدقّة عظيمة حتى يبقى شعلة متّقدة. وجهّ همّه إلى الوجهة القرائية لتثبيت دعائمها، كلّ ذلك يدلّ على أنّ هناك وعيا علميا ورغبة صادقة للسير في ركب علم القراءات ووضع أصول قراءته خشية تسرّب العجمة، فنعرة الشذوذ لا

تزال متمكّنة والسعي لنشرها باق. مكّنته ذخيرته العلمية وساعدته معرفته وتعمّقه في اللغة على وضع فرشه بنهج خال من التعقيد.

عرف ابن كثير في تاريخ القراءات القرآنية المتواترة والفرش الناضج كقارئ غزير التغيرات اللغوية متعدّد المواهب، وأنّ علماء الإقراء دلّوا على أنّه من أبرع القراء، وذو فهم عقلي كبير، لم يقنع بما حصل عليه؛ بل تطلّع إلى ما يشعّ من علوم القرآن فاستيقظ ليغترف من منهله العذب ومن معينه الترّ، وبقايا الفصاح ما استطاع، جاء طلاب العلم ليتفقّهوا على يديه فنبغ فيهم من نبغ كالبزي وقنبل. كان من السابقين في حلبة حركة الإقراء ووضع مذهبه وهيّأ له فرشه ونحت ألفاظه بلغة عربية سمحاء معطاءة لكلّ ما تتطلّب القراءة المتواترة. فبدأت فكرة توسيع علم القراءات تتغلغل في الأذهان بعد أن شمّ المهتمون أنسام شرفه وأهميته في خدمة كتاب الله اقتداء بالصحابة.

ابن كثير قارئ حاذق يميّز أهمية القراءة القرآنية ليقدّمها مضاءة غير عشوائية، مجتهدا غير منقول، فطموحه منصب في هذا الاتّجاه ليقف على صرح الحركة القرائية، ويستشرف جوانبها المضيئة. أمانة التراث اللغوي تقتضيه استجلاء الفصيح، ومجاهدا في دحض الغريب الحوشي، واستئصال المغمور ليس في طياته أيّة إضافة مجدية، جعل جمال قراءته وسرّ البراعة في فرشه في مراعاة معرفته اللغوية، وهي نظرة تعود إلى الذوق والاستعمال. أبدى تفاعلا واعيا بين الفرش واللغة بطريقة علمية خلاقة امتازت بالأصالة العلمية، وتجسيد الحركة القرائية يدعو القارئ إلى التأمل والإعجاب فهو يمثّل الاستجابة العفوية لطبيعة القراءة بعيدة عن التكلّف والغلو، فيها روح حكمية تعليمية ذات دلالات عالية حين يجسّد معنى القراءة المتواترة، وأساليب حيّة للغة، وحس معرفي في تحديد الألفاظ الفرشية التي صارت مأوى للتغيرات اللغوية.

إنّها قراءة تبرز قدرة ابن كثير القرائية في رسم الفرش وانتقاء لغة حية نامية في عروقه من خلال خصوصيتها فنية المتجليّة في الانسجام والاتّساق في تناغم الألفاظ الفرشية والتغيرات اللغوية، استطاع أن يرفع من شأن قراءته ويحسن نسجها وحياكتها عن طريق الفحص والتشذيب ليصل بها إلى مستوى علمي رفيع.

2.3. **نافع بن عبد الرحمن المدني (169 هـ)**

هو من قراء الحرم كان إمام الهجرة، أخذ القراءة عن جماعة من تابعي أهل المدينة وروى القراءة عنه مالك بن أنس وإسماعيل بن جعفر. أهلته ملكته أن يعرف أسرار علم القراءات فتمكّنت موضوعاته في ذهنه، وأدرك مقدار الاستجابة لدقائق اللغة، فاستطاع الوصول إلى تهيئة الأجواء لفرشه، واستثارة واعية لكياسته في مواجهة اللحن. تعالت في أعماقه الغيرة عن القرآن الكريم، فلم تقفن في ووجهه سبل الاجتهاد الجديّ فوجد في القرآن الكريم الصحوة لمذهبه ليكون ثروة علمية ومنهلا للعلماء.

نافع في وثباته القرائية استطاع أن يغتمد أوهج فرش، وقد درِب بين القرآن الكريم والقدرة اللغوية على استعذاب النحو، نازل كبار القراء فكان المتميّز، وعارك متاهات القراءة الشاذة فكان الأرشد. اقتنع الشيخ بفرشه وأدرك ما سيصيب الأمة من خيره، كان على درجة عالية من الإحاطة والإلمام بمجمل علم الرواية وعلم الدراية، فهو قارئ المدينة وحافظ القرآن ومتقنه، ولذا لم يكن نطق القرآن عسيرا عليه إنّما كان مطابقا لنطق الرسول عليه الصلاة والسلام لاعتياد لسانه بلهجة القبيلة التي نشأ فيها، فتلا القرآن تلاوة صحيحة سالمة من الغلط، ومن هنا لم تنشأ اختلافات في النص القرآني تحتم مواجهته كمشكلة في تلك الفترة(وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة: لأنّ القراءة سنة متبعة فلزم قبولها والمصير إليها.)[6] فقراءة نافع تمثّل جانبا مشرقا من تراثنا القرائي الجليل نستشرف منه مساهمة يواكب الحضارة الإنسانية، وهو حلقة من الحلقات العلمية التي انداحت عبر قرون تخدم اللغة العربية، كان ملمّا بوجوه القراءات مقتفيا لآثار العلماء السابقين ببلده. سليقة الشيخ مستقيمة بالفصاحة، لذا فالرجوع إلى فرشه يسعف في بيان دلالة التغيرات اللغوية ما يدعو إلى إكبار قراءته أيّما إكبار لشدّة الجهد والأناة في العلم دون كلل أو ملل، لا تجد فيها نكوصا لانتظام العلاقة بين ألفاظه الفرشية واللغة، فبدت سلسة أنارت درب القراء، رفدت علم القراءات بمادة لغوية غنية

سرعان ما اكتشفها أهل الإقراء لتطلّعهم إلى مستقبل علمي لفكر متبصّر يحسب للوقت قيمته، ويضع الأمة الإسلامية في مقامها المستحقّ بين الأمم.

لم يهمل نافع العقل ومدركاته حين يجعل القرآن وسنّة الفصحاء سنده ومرتكزه في ألفاظه الفرشية، فهو يعرف قيمة العقل فلم يكن يجاوز مجاله ولا يعلو به عن قدره، ولم يجعله حاكما على لغة القرآن أو كلام العرب الفصيح. بحث الشيخ في علم القراءات الذي هو ثمرة الخالدة التي خرج بها من مخاضاته القرائية، استطاع أن يحقّق أعدل موازنة بين اللغة والفرش؛ إذ احترم قوّة النص القرآني وأنكر التعسّف في استخدامه حتى يكون مناط ثقّة، إنّه كالنحلة يحوم حول القرآن يمتص رحيقه ليكتسب لغة صافية، فيسمو بفرشه ويتعمّق في دقائقه، ويتمكّن من تحمّل عبء الفصاحة فأغترف من معينها. أخذت قراءة نافع تزداد قوة ويزهو فرشها وأمدّت ملكته بما أراد من مفردات وصيغ واشتقّ بعضها اشتقاقا، فأصبح موئلا لطلاب العلم من مختلف الأرجاء في مقدمتهم ورش وقالون ومركزا للإشعاع القرائي.

احتضنت المدينة مكانته القرائية برحابة صدر، فذاعت وشاعت في الحواضر الإسلامية، وإنّ القارئ ليمتلكه الإعجاب والإكبار بالتغيرات اللغوية وألفاظه الفرشية لأنّ اللغة كانت بيده مطواعة بما حوته من دلالات فأصبح من أوثق وأغنى المراجع القرائية. كما كان للأمصار الأخرى كالأندلس والمغرب نصيب من قراءة نافع، وقد ساعدت المراكز الدينية والثقافية على تعليم أصول فرشه.

4. دراسة نماذج للتفرّد القرائي للتغيرات النحوية لدى كلّ قارئ

التفرّد القرائي من الأصول اللغوية أفرزتها ملكة القارئين اللّذين أبدعا في رسم صورة رائعة لعلاقة التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية تدّل على دقّة ملاحظتهما وتوهّج حسهما المعرفي. صيّرا العلاقة بروح علمية تكشف عن ملامح التغيير اللغوي على ملامح العربية بأخلاقياتها

الرفيعة في كنف الإعجاز اللغوي، فبلغا درجة عجيبة من الكياسة والتوليد للألفاظ الفرشية والمعجم النحوي الذي ارتبط بمرجعتيهما ارتباطا وثيقا من سلوك ومزاج وعلم.

وفّق القارئان في تقديم قراءة متميّزة كاشفين بذلك عن قدرتهما القرائية، وعن سموّ التفرّد القرائي باعتبارهما النموذج العلمي الراقي الذي يثبت اهتمام كلّ واحد بعلم القراءات، ويدلّل على إسهامه الفعّال في تأصيل الحركة القرائية، ومن الإنصاف يقتضينا أن نقف عند صورة كلّ واحد منهما.

4 . 1 . ابن كثير:

كان ابن كثير ممثّلا لحركة الإقراء بمكة بأصولها وضوابطها، طالما استنجد بالقرآن الكريم وسنّة الفصحاء، ودعا العقل أن يعمل عمله في إبلاغ علاقة التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية درجة التفاعل المنطقي، هذا شجّع المعرفة القرائية وأغنى علم القراءات في آن واحد عن طريق البحث الواعي المعلّل الباذل جهده لتحقيق جمالية الفرش.

اجتهد الشيخ في تكوين علاقة علمية بين النحو والفرش متخمة بالثراء النحوي، ناهيك عن كونها تعداد التغيرات النحوية مختارة وفق معايير علمية تخلو من النوادر. اعتمد هذا المنظور العلمي حين همّ بتأسيس مذهبه القرائي، ونظر إليه ضمن حركة قرائية مرتبطة بالقرآن الكريم. ويقينا أنّ الإرث القرائي الضخم توصّل أثره إلى فهم مبتكر أصيل لعلم القراءات الذي لا يجري إلا وفق قوانين علمية موضوعية اهتدى إليها حين جعل القرآن الكريم معيارا فعّالا في تنوير فرشه وتكوين ذهن المتعلّم.

ومن النماذج التي انفرد بها قوله تعالى:(فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰت) البقرة36 (فقرأ ابن كثير بنصب(آدم)ورفع (كلمات)وقرأ الباقون برفع(آدم) ونصب (كلمات بكسر التاء.)7 حجّة النصب عند ابن كثير نسب الفعل إلى(كلمات) لأنّها تلقّت آدم عليه السلام، أي جاءت آدمَ من الله كلماتُ (والحجة لمن نصب آدم أن يقول: ما تلقّاك فقد تَلَقّيْتهُ وما نالك فقد نِلْتَه. وهذا يسميه النحويون: المشاركة في الفعل.)8 وذكّر الفعل لأنّ الفاعل مؤنّث غير حقيقي، أما قراءة

رفع(آدم) ونصب (تاء كلمات) فبفعله لأنّه تلقّى الكلمات من ربّه أخذا وفهما أي أخذها بالقبول قال ابن الجزري:9

خُلْفًا بِكُلٍّ وَأَزَالَ فِي أَزَلْ فَوْزٌ وَآدَمُ انْتِصَابُ الرَّفْعِ دَلْ

وَكَلِمَاتٌ رَفْعُ كَسْرٍ دِرْهَمِ لاَخَوْفَ نَوِّنْ رَافِعًا لاَ الْحَضْرَمِي

وفي قوله تعالى:(وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ اَلصّٰلِحٰتِ وَهُوَ مُومِن فَلَا يَخَافُ ظُلْما وَلَا هَضْما) طه109(فقرأ ابن كثير(يخف)بالجزم وقرأ الباقون بالرفع)10 الفعل بصيغة الجزم فيه نهي، وحذفت الألف لتوالي ساكنين سكون الألف والفاء، أمّا قراءة الرفع فعلى النفي والاستئناف، أو على الخبر التقدير فهو (لا يخاف) وقراءة ابن كثير توحي إلى تحقيق أمنه من الجور والحيف.

وفي قوله تعالى: (سَحَاب ظُلُمٰتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) النور39 (قرأ ابن كثير وحده: (سَحَابٌ)منونة (ظُلُمٰتِ)خفضا.)11 مع التنوين بالابتداء والخبر (من فوقه)، وخفض (الظلمات) على البدل على الأولى (أَوْ كَظُلُمٰت) والتقدير (كظلماتٍ ظلماتٍ)، أمّا قراءة الرفع (سَحَابٌ ظُلُمٰتُ) (سَحَابٌ)فخبر الصفة، و(ظُلُمٰتُ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه ظلمات) أو(ظُلُمٰتُ) مبتدأ وخبره (بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) والجملة من المبتدأ والخبر تفسيرية لما قبلها.

وفي قوله تعالى: (وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ) النمل82 (وقرأ ابن كثير: «وَلَا يَسْمَعُ» بالياء مفتوحة مع فتح الميم، «الصُّمُّ» بالرفع وكذا في الروم، وقرأهما الباقون بالتاء مضمومة مع كسر الميم، «ٱلصُّمَّ» بالنصب.)12 في القراءة إخبار عن نفي السمع عنهم، لأنّهم لا يقبلون الحقّ، ويكابرون عليه، فقد ولّوا مدبرين وابتعدوا عمّا سيلقى عليهم «ذُكِرَ عِنْدَ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أنَّ ابْنَ عُمَرَ رَفَعَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ ببُكاءِ أهْلِهِ. فقالَتْ: وَهِلَ، إنَّما قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه لَيُعَذَّبُ بخَطِيئَتِهِ وذَنْبِهِ، وإنَّ أهْلَهُ لَيَبْكُونَ عليه الآنَ. قالَتْ: وذاكَ مِثْلُ قَوْلِهِ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ قامَ علَى القَلِيبِ وفيهِ قَتْلَى بَدْرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فقالَ لهمْ، ما قالَ: إنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ ما أقُولُ، إنَّما قالَ: إنَّهُمُ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أنَّ ما كُنْتُ أقُولُ لهمْ حَقٌّ، ثُمَّ قَرَأَتْ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ ﴾[النمل: 80]، {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر:

22]، يقولُ: حِينَ تَبَوَّؤُوا مَقاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ»)13 القراءة بالتاء ونصب (الصُّمَّ) قصد النبيّ صلى الله عليه وسلم بتعدي الفعل والتقدير لا تستطيع أن بتوصل دعاءك إلى المعرضين، فقد أصابهم الصمّم لأنّ الله طبع على قلوبهم، وعطف على ما قبلها (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ).

إنّ ظهور ابن كثير كمقرئ بمكة كان علامة النور المتميّزة في ذلك الأفق المشعّ بوصفه مؤثّرا في الإفصاح عن مهمّة علم القراءات، واتّخذ منه معيارا لانتقاء التغيرات النحوية انتقاء علميا عمادها الكشف عن الألفاظ الفرشية تثبت أنّ القراءة القرآنية لا تخطو على أساس أهواء ذاتية؛ بل وفق حتمية علمية تكون تهويجا قرائيا ذات أهمية وعمق حيث طرح العلاقة بين التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية التي استهدفت في الأصل تنقية علم القراءات من شوائب الشاذّ.

إنّ نظرته القرائية الفاحصة ومنهجه القائم في جوهره على ملاحظة الفصيح من النحو أهّل فرشه أن يتبوّأ مكانا متميّزا ووسمته بميسم الموضوعية، بحكم معرفته لأصول القراءات وقدرته عليه للوصول إلى منعطف مهمّ يسجّل فيه ظهور لمحات الحركة القرائية بالحرم.

4 . 2 . نافع:

تشهد قراءة نافع بما تحتوي من نفائس التغيرات النحوية ولطائف الألفاظ الفرشية على رسوخ قدم الشيخ في القراءة، وتمكّنه من إرساء قواعد الإقراء بالحرم امتدّ شعاعها إلى بلاد المغرب والأندلس، فاتّجهت همّة أهلها صوب مذهبه بفطنة تعبّر عمّا فاض به من علم غزير يهدي إليهم إلى الخير، ويحقّق لهم ذخائر في النحو والفرش. كانت علاقة التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية على جاذبية أعظم، وتنوّع أغزر بالغة الجدية مجدّدة في مضمونها مفهرسة بوعي. فلمسة الشيخ موهوبية تتّضح في طريقة عرض العلاقة لا يقوى القارئ على التهرّب منها، إنّها منضدة تنضاف كرافد إلى جوهر علم القراءات الني تزيده تجلّة واحتراما.

من التغيرات النحوية التي تميّز بها نافع في قراءته قوله تعالى: (وَلَا تَسْـَٔلُ عَنَ اَصْحٰبِ اِلْجَحِيمِ) البقرة 118(فقرأ نافع وحده﴿ وَلَا تَسْأَل ﴾مفتوحة التاء مجزومة اللام، وقرأ الباقون﴿ وَلَا تُسَلُ ﴾مضمومة التاء مرفوعة اللام.)14 على أنّ (لا) ناهية جازمة، والنهي من السؤال أي لا

تسال يا محمد والسؤال في التطلّع إلى معرفة الحال، وإشارة إلى بشاعة العذاب الذي لحق المشركين حتى أنّ العقل لا يستطيع تصور أحوالهم، والنهي عن السؤال يكون للتعظيم. حدّثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالكٌ عن سعيد المَقْبُريّ عن أبي سلَمَة بن عبد الرحمن أنه أخبره: أنَّه سَأَلَ عائِشةَ رَضيَ اللهُ عنها: كيفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رَمَضَانَ؟ فَقالَتْ: ما كانَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَزِيدُ في رَمَضَانَ ولَا في غيرِهِ علَى إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فلا تَسَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فلا تَسَلْ عن حُسْنِهِنَّ وطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. قالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ فَقالَ: يا عَائِشَةُ، إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ ولَا يَنَامُ قَلْبِي.)15 أمّا القراءة الثانية فلا للنفي أو الاستئناف أو على الحال أي (أرسلناك غير سائل عن أصحاب الجحيم.).

وفي قوله تعالى: (وَإِن كَانَتْ وٰحِدَة) النساء11(وقرأ نافع:﴿ وَإِن كَانَتْ وٰحِدَة ﴾بالرفع، و نصبها الباقون.)16 على أنّ (كان) تامة، (ذلك لما كان القضاء، في الإرث الواحدة لا في نفسها، وجب أن يكون التقدير: فإن وقع أو حدث إرث واحدة، ونحوه، وقد كان يلزم الرفع في «النساء» في قوله (فَإِن كُنَّ نِسَاء)17 وكما قال تعالى: (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَة) البقرة 279 والباقون بالنصب على أنّ (كان) ناقصة، واسمها ضمير مستتر العائد على الوارثة، (وواحدة) خبر، أو على ما يدلّ في أولادكم من إفراد بمعنى إن وجدت الولد بنتا.

وفي قوله تعالى: (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ اَلْمُجْرِمِينَ) الأنعام 56(قرأ نافع «سَبِيلَ» بالنصب، ورفع الباقون.)18 النصب راجع إلى أنّ(استبان) متعدية، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم (ففي الفعل ضمير المخاطب، والفعل في القراءة الأولى فارغ لا ضمير فيه، والتاء تؤذن بأن الفاعل المسند إلى الفعل المؤنث.)19 رفع(السَبيلُ)على أنّه فاعل (تَسْتَبِينَ)وهو فعل لازم، وأنّث السبيل كما قال تعالى: (قُلْ هٰذه سَبِيلِيَ) يوسف108 ويذكّر أيضا قال تعالى: (وَإِنْ يَّرَوْاْ سَبِيلَ اَلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا) الأعراف146

وفي قوله تعالى: (وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّة مِّنْ خَرْدَلٍ) الأنبياء47 (قرأ نافع وحده:(وَإِن كَانَ مِثْقَالُ) رفعا، وقرأ الباقون نصبا.)20 (فمِثْقَالُ) مرفوعة لأنّ (كَانَ) تامّة و(مِثْقَالُ)فاعل، التقدير (وإن وقع للمخلوق مثقالُ حبة)، أمّا القراءة بالنصب فعلى أنّه خبر(كان)واسمها يعود على(شيئا) أو تقديره (العملُ) أو ما تعلّق بالظلم، أُنْكر جنس الظلم وأنكر عن كل نفس، فدلّ ألاّ بقاء للجور بلا حساب. وتفيد القراءتان إن وجد لنفس مثقال حبّة من خردل من نفع أوضرّ من في ميزان أعمالها يثاب عليها.

في قوله تعالى: (وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبا لِّتُرْبُواْ) الروم38 (كلهم قرأ: (لِيَرْبُوَاْ) بالياء مفتوحة الواو، غير نافع قرأ:(لِّتُرْبُواْ) بضم التاء ساكنة الواو.)21 نافع قرأ بتاء الخطاب مضمومة وواو الجماعة ساكنة، والخطاب للفئة الآخذة لتزدادوا أمولا على أموالكم (فالأصل (لَتُرْبُوون)فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصار(لَتُرْبِيُون)ثم حذفنا حركة الياء فاجتمع ساكنان الياء والواو، فحذفت الياء لسكونه وسكون الواو، وسقطت النون علامة النصل.)22 أمّا القراءة بالياء مع فتح الواو فعلى أنّه فعل مضارع منصوب ب(كي)، ولإسناد الفعل إلى (الربا).

وفي قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُر أَعْدَاءَ اَللَّهِ) فصلت 18 (نافع﴿ وَيَوْمَ نَحْشُر ﴾بالنون مفتوحة وضم الشين.﴿ أَعْدَاءَ اَللَّهِ ﴾بالنصب، والباقون بالياء مضمومة وفتح الشين﴿ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ بالرفع)23 (نَحْشُرُ)بنون العظمة مبنيا للفاعل وجعل الفعل متعديا(أَعْدَاءَ)مفعول به منصوب، ومعطوف على ما قبلها (وَنَجَّيْنَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ) الشورى17 واستندوا على قوله تعالى: (يَوْمَ نَحْشُرُ اُلْمُتَّقِينَ إِلَي اَلرَّحْمَٰنِ وَفْدا) مريم86 أمّا القراءة بياء الغائب فعلى ما لم يسم فاعله ورفع الاسم به(الأَعْدَاءُ)، وما يدعّم هذا الفعل الذي ورد بعده (فَهُمْ يُوزَعُونَ).

وفي قوله تعالى:(اَوْ يُرْسِلُ رَسُولا فَيُوحِ) الشورى 48(قرأ نافع «اَوْ يُرْسِلُ» بالرفع، «فَيُوحِ» ساكنة الياء، وقرأ الباقون «اَوْ يُرْسِلُ» بفتح اللام، «فَيُوحِ «بالفتح.)24 رفع الفعل (يُرْسِلُ) وإسكان الياء في (يُوحِ) على الاستئناف وفصلها عمّا قبلهما، أو على الخبرية أي (هو مرسل

رسول) أو (الرفع على الحال، على أن يجعل «إِلَّا وَحْياً» حالا، ويعطف عليه «أويرسل»ويعطف عليه «فيوحي».)25 والقراءة بنصب الفعلين (يرسلَ ويوحيَ) على تقدير (أنْ) المحذوفة أي العطف على المصدر (إِلَّا وَحْياً) والمعنى: (إلا أن يوحي).

إنّ الروافد العلمية التي صبّها نافع في فرشه كانت لها نتائج نفيسة بفضل التغيرات النحوية التي استوحاها من نظام النحو القرآني، كما أجاد نقل القواعد النحوية الأصيلة التي ضبطها النحاة. ويلوح أنّ نافع لم يساوره أيّ حرج في توسيع العلاقة بين التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية؛ إذ قراءته صاغها بشكل منهجي غير مخبّط، فهو يشير بلمسات بديعة إلى هذه العلاقة البالغة التثقيف، ورسالته في المتعلمين ليقتطفوا منها لطائف فرشه، وتنشئة الذوق وتعليم القراءة الصحيحة، وكنتيجة فإنّ الحركة القرائية يجب أن تدور في فلك القرآن الكريم واللغة العربية الفصحى.

4. خاتمة

من هذا التفرّد القرائي بين الشيخين نستشّف إشارات عميقة للقراءة التي أثبتت، أنّ العلاقة بين التغيرات النحوية والألفاظ الفرشية قد أخذت بعدا في عقل القارئين، لأنّهما استطاعا أن يطرحا المسألة طرحا ملامسا، وبصورة واضحة للإقراء، كانت حصيلة اجتهادهما وثمار تبحّرهما بطريقة علمية دقيقة انبثقت عن مراقبة الواقع اللغوي بصورة حاذقة، تمكّنا من الاهتداء إلى علاج شاف لذلك التوعّك الذي أصاب أهل اللحن والشذوذ. إنّ اجتهاد القارئين البارع أعطاهما دورا رئيسا في دفع حركة الإقراء وتطورها، فاشتغالهما في هذا الحقل كان أكثر بكورا، وميراثا علميا حظي باهتمام القراء، واكتسب أهمية عميقة الجذور حتى يومنا.

نتائج:

. إنّ الباعث الأساسي لقراءة القارئين لا يقوم على منطلقات نحوية وحسب بل هو قائم في الأساس على مدّ الرباط بين القرآن الكريم الذي يشكّل الإطار الكبير لتلك المعارف النحوية بعلم القراءات.

. النقلة النوعية لفرشهما تضع أمام أهل الإقراء مهمّة جليلة ذات أبعاد شاملة تقوم على التمسّك بالحركة القرائية، أي كلّ ما طرحه القارئان بحجمه النفيس في رؤيتهما العلمية بدعوى الحفاظ على التراث الذي لا ينبغي رفضه أو وأده.

. قامت جهود الرجلين على أساس مواجهة الرطانة التي تقتضي حتما ثورة قرائية ينبوعها التخطيط المحكم يستوعب هذا الميراث الضخم، ويحاط به إحاطة علمية.

. أتاح الشيخات إمكانية التطلّع والطموح إلى تطويع القراءة بشكل سلس ومرن لا ترى فيها أيّ تشويه أو مسخ، يوقع المتعلمين في متاهات توصلهم إلى الحطّ من قيمة هذا التراث.

التوصيات:

أمّا التوصيات التي خلصت إليها فهي:

. العمل على توسيع دائرة الدرس النحوي، والرفع من البحوث حول علاقته بالألفاظ الفرشية.

. الانفتاح على الدراسات الحديثة مع المحافظة على خصوصية الدرس النحوي في القراءات القرآنية.

. ضرورة تكثيف الإنتاج العلمي لتوطيد العلاقة مع كتاب الله.

. تدعيم المعجم القرائي وتوعية الناشئة بوجوب التواصل الفعال معه.

المصادر والمراجع:

1. البخاري أبو عبد الله، (1423). الصحيح. دار ابن كثير دمشق، باب قيام النبي(ص)في رمضان وغيره، ط1

2 . الجوهري إسماعيل بن حماد، (1399)، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين بيروت، ط2

3 . أبو الخير محمد بن الجزري، (د.ت). النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت

4 . ابن الجزري أبو الخير محمد، (1414)، طيبة النشر في القراءت العشر، مكتبة دار الهدى جدة، ط1

5 . الداني أبو عمرو، (1428)، جامع البيان في القراءات السبع، جامعة الشارقة الإمارات

6 . ابن زنجلة أبو زرعة عبد الرحمن، (1418)، حجة القراءات، مؤسسة الرسالة بيروت، ط5

7 . ابن مجاهد أبو بكر، (د . ت)، السبعة في القراءات، دار المعارف مصر

8 . ابن منظور أبو الفضل، (د.ت)، لسان العرب، دار صادر بيروت، مادة فرش

9 . الفارسي أبو علي(1428)، الحجة في علل القراءات، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلمية بيروت، ط1

10. القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب، (1430). الكشف عن وجوه القراءات (المجلد 1). تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة بيروت
11 . القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب، (1402). التبصرة في القراءات السبع. دار السلفية الهند، ط3
12. أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، (د.ت)، إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الكتب العلمية بيروت
13. ابن خالويه أبوعبد الله الحسين بن أحمد، (1399)، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق بيروت
14. الضباع علي محمد، (1420)، الإضاءة في بيان أصول القراءة، المكبة الأزهرية للتراث، ط1
15. ابن غلبون أبو الحسن بن طاهر(1412)، التذكرة في القراءات الثمان. تحقيق: أيمن رشدي سويد

الهوامش:

1 . ابن منظور أبو الفضل، (د.ت)، لسان العرب، دار صادر بيروت، مادة فرش
2 . الجوهري إسماعيل بن حماد، (1399)، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين بيروت، ط2، مادة فرش
3 . أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، (د.ت)، إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الكتب العلمية بيروت، ص319
4 . الضباع علي محمد، (1420)، الإضاءة في بيان أصول القراءة، المكبة الأزهرية للتراث، ط1، ص10
5 . ابن الجزري أبو الخير محمد، (د.ت). النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، 254/2
6 . الداني أبو عمرو، (1428)، جامع البيان في القراءات السبع، جامعة الشارقة الإمارات، 51/1
7 . الفارسي أبو علي(1428)، الحجة في علل القراءات، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 119/2
8 . البخاري أبو عبد الله، (1423). الصحيح. دار ابن كثير دمشق، باب قيام النبي(ص)في رمضان وغيره، ط1، ص 278 .
9 . ابن غلبون أبو الحسن بن طاهر(1412)، التذكرة في القراءات الثمان. تحقيق: أيمن رشدي سويد، ص304
10 . القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب، (1430). الكشف عن وجوه القراءات (المجلد 1). تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة بيروت، 378/1.
11 . القيسي أبو محمد مكي بن أبي طالب، (1402). التبصرة في القراءات السبع. دار السلفية الهند، ط3، ص 495.
12 . الفارسي، الحجة في علل القراءات، 497/2
13 . ابن مجاهد أبو بكر، (د . ت)، السبعة في القراءات، دار المعارف مصر، ص 429
14 .. ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص 507.
15 .. ابن زنجلة أبو زرعة عبد الرحمن، (1418)، حجة القراءات، مؤسسة الرسالة بيروت، ط5، ص559
16. الداني، جامع البيان في القراءات السبع، ص502

17 . ابن زنجلة، حجة القراءات، ص 644
18 . القيسي. (1430). الكشف عن وجوه القراءات، 254/2
19. ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، 211/2
20 . ابن خالويه أبوعبد الله الحسين بن أحمد، (1399)، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق بيروت، ص75
21 . ابن الجزري أبو الخير محمد، (1414)، طيبة النشر في القراءت العشر، مكتبة دار الهدى جدة، ط1، ص62
22 . ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص457
23 . ابن الجزري. (د.ت). النشر في القراءات العشر، 322/2
24 . ابن غلبون. (1412). التذكرة في القراءات الثمان، 477
25 . البخاري، الصحيح، باب: قتل أبي جهل، حديث رقم: 3979، ص978

.

.